

خطبة الجمعة - الخطبة ٣٦٣ : خ ١ - حديث شريف (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...) ، خ ٢ - العظام وتركيبها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩١-١٠-٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله ، وما توفيقي ولا اعتصامي ولا توكلني إلا على الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً لربوبيته ، وإرغاماً لمن جد به وكفر ، وأشهد أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله ، سيد الخلق والبشر ما اتصلت عين بنظر ، أو سمعت أذن بخبر ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن والاه ، ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيء قادر ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنها ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الله سبحانه وتعالى غني حميد لا حاجة له بطاقة عباده :

أيها الأخوة الأكارم ؛ في الخطبة السابقة بدأنا بشرح الحديث القديسي المروي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فما ظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلّا من هديته فاستهدوني أهداكم ، يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهر وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم))

[مسلم عن أبي ذر]

أيها الأخوة الأكارم ؛ هذه الفقرات من الحديث القديسي تم شرحها في الخطبة السابقة ، وتنتمي الحديث القديسي :

((يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضرونني ولكن تبلغوا نفعي فتنفونني ، يا عبادي لو أن أو لكم آخركم وإنكم وجنكما كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أو لكم آخركم وإنكم وجنكما كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أو لكم آخركم وإنكم وجنكما قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلّا كما يتقص المحيط إذا دخل البحر ،

يَا عَبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِبُهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوْفِيَكُمْ إِلَيْهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلَيَحْمِدُ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)

[مسلم عن أبي ذر]

((يَا عَبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضْرُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي))

الله سبحانه وتعالى غنيٌ حميد ، لا حاجة له بطاعة عباده ، وطاعة عباده جميماً لا تنفعه ، ومعصية عباده جميماً لا تضره ، إنما الذي ينتفع بالطاعة هم العباد أنفسهم ، وإنما الذي يتضرر بالمعصية هو العبد نفسه ، فطاعة العباد جميماً لا تنفع الله عز وجل ، ولا تزيد في ملكه ، ومعصية العباد جميماً لا تضر الله عز وجل ، ولا تنقص في ملكه . يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضْرُوَا اللَّهَ شَيْئًا﴾

[سورة آل عمران : ١٧٦]

هذا مصدق هذا الحديث من كتاب الله تعالى ، وفي آية أخرى :

﴿وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضْرُرَ اللَّهَ شَيْئًا﴾

[سورة آل عمران : ١٤٤]

أحياناً يسلك المرء في طريق الإيمان ، وفي ساعة غضب ، أو ساعة شهوة ، أو ساعة ضعف ، ينقلتُ من استقامته ، وينطلق إلى المعاصي ظاناً أنه بهذه المعاصي يشفي غليله من القدر ! إنه الحمق بعينه ، إنه الغباء بعينه ، إذا انطلق الإنسان إلى المعصية لن يضر أحداً إلا نفسه ، وإذا انحرف عن الطريق المستقيم لن يدفع أحد ثمن انحرافه إلا هو ، وإذا تجاوز الحدود أصبح من الحضرة مطروداً .

فيما أليها الأخوة المؤمنون ، حينما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنفُسِهِمْ يَمْهُدُونَ﴾

[سورة الروم : ٤٤]

وقال تعالى :

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

[سورة إبراهيم : ٨]

لن تتفعل طاعتك ، ولا تضره معصيتك ، وفي آية رابعة قال تعالى :

﴿إِنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَا يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾

[سورة الحج : ٣٧]

ربنا عز وجل صاحب الأسماء الحسنى ، كاملٌ كمالاً مطلقاً ، ومن خصائص الكمال المطلق أنَّ الله سبحانه وتعالى يُحب لعباده الخير ، فإن تابوا أحبابهم ، لا لأنهم نفعوه ، ولا لأنهم زادوا في ملكه ، بل لأنهم نفعوا أنفسهم ، واستفادوا من عطاء الله عز وجل .

من انحرف و تجاوز الحدود يضر نفسه و لا يضر الله شيئاً :

أيها الأخوة الأكارم ؛ يقول عليه الصلاة والسلام :

((من يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ، ولا يضر الله شيئاً..))

خمس آيات ، وحديث شريف يؤكّد أنّ الإنسان إذا انحرف ، أو تجاوزَ الحُدُود ، أو زاغَ عن طريق الحقّ ، انتكسَ ، أو رجعَ الْقَهْرَى ، إنّ هذه الأفعال لن تضرَ الله شيئاً ، إنما يحقرُ قبره بيدهِ كما يُقال ، أو يحقرُ حفرةً ليقع فيها .

أيها الأخوة الأكارم ؛ الشيطانُ أحياناً يدفعُ الإنسان إلى المعصية ليُشفيهُ غليله حينما تتعاكسُ الأمور ، من كان يظنّ أنه لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، أحياناً يُضيقُ على الإنسان ، أحياناً تُغلقُ في وجه الإنسان كلَّ الأبواب ، أحياناً أبواب الأرض كلّها مغلقة ، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يتطلعُ الإنسان إلى السماء ، من أجل أن ينطلقَ إلى باب الله تعالى ، من أجل أن يتوب ، من أجل أن يستقيم ، من أجل أن يصطلاح مع الله تعالى ، فحينما تضيقُ الأمور بالإنسان ، وتغلقُ الأبواب ، بدلَ أن يكون هذا الإغلاق ، وذاك التضييق دفعاً له إلى باب الله ، ودفعاً له إلى باب التوبة قد يُبَيِّسُ الإنسان ، فإذا انتكسَ إلى معصيةٍ ، وانكبَ على مخالفةٍ من أجل أن يُشفى غليله هذا هو الحُمُق بعينيه ، وهذا هو الضلال بعينيه ، وهذا هو الغباء بعينيه ، يقول :

﴿وَلَا يَحْرُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾

[سورة آل عمران : ١٧٦]

وقال تعالى :

﴿وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَنْ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا﴾

[سورة آل عمران : ١٤٤]

وقال تعالى :

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

[سورة إبراهيم : ٨]

لن تتفعله . وقال عليه الصلاة والسلام :

((من يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ، ولا يضر الله شيئاً..))

شرط قبول الاستغفار أن يقلع المستغفر عن الذنب :

وفي آية أخيرة قال تعالى :

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾

[سورة الحج : ٣٧]

أي إذا رجعتم إلى الله ، وسعدتم بقربه ، وحفظتم من قبل الله عز وجل ، هذا الذي يُفرح الله عز وجل ، لذلك ورد في الحديث :

((الله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدٍ مِّنَ الْعَقِيمِ الْوَالِدِ ، وَمِنَ الْضَّالِّ الْوَاجِدِ ، وَمِنَ الظَّمَانِ الْوَارِدِ))

[رواية ابن عساكر عن أبي هريرة]

والقصة التي تعرفونها ، والتي رواها النبي عليه الصلاة والسلام حيث أنّ أعرابياً ضلّ الطريق ، وضاعت منه ناقته التي عليها طعامه وشرابه ، فجلس يبكي حتى أدركه التعب فنام فاستيقظ فرأى الناقة أمامة ، فمِنْ شدة الفرح اخْلَلَ توازنه ، وقال : يا ربّ أنا ربّك ، وأنت عبدي ، يقول النبي عليه الصلاة : " الله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِ مِنْ ذَلِكَ الْبَدْوِيِّ بِنَاقَتِهِ " وهذا معنى قول الله عز وجل :

«إِنَّ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ»

[سورة الحج : ٣٧]

وقد ورد في الحديث القدسي أنّه من علم منكم أنّي ذو قدرة على المغفرة ، ثم استغفرني غرفتُ له ولا أبالي . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ : يَا رَبَّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ رَبُّهُ : عِلْمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، فَغَفَرَ لَهُ ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ، وَرَبُّهُمَا قَالَ : ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ ، فَقَالَ : يَا رَبَّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ رَبُّهُ : عِلْمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، فَغَفَرَ لَهُ ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ وَرَبُّهُمَا قَالَ : ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ ، فَقَالَ : يَا رَبَّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ رَبُّهُ : عِلْمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ فَقَالَ رَبُّهُ : غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلَيَعْمَلْ مَا شَاءَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

من كان مع الله كان الله معه :

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ أحذر العارفين بالله ذو النون المصري ، قال مرّة : أين قلبي ؟ أين أجده قلبي ؟ ويقصد بهذا الكلام أنّ الإنسان أحياناً يقع في حيرة ، تأتّس عليه الأمور ، ويشعر بالضيق ، ولا يدرى لهذا الضيق من سبب ، قال هذا العارف بالله : أين قلبي؟ ومن وجد لي قلبي فليُخبرني أين أجده قلبي ؟ دخل في بعض السّيّك ، وفي بعض الأزقة ، فوجّد صبياً يبكي ، وأمه تصربه ، ثم تخرجـه من الدار ، وتغلقـ الباب دونـه ، فجعلـ الصبيـ يتلفـ يمينـا ، وشمـالـا ، لا يدرى أين يذهب ، ولا أين يقصد ، فجعلـ يبكي ، ويقولـ : يا أمـاهـ من يفتحـ علىـ الـبابـ إنـ أـنـتـ أـغـلـقـتـ علىـ الـبابـ ؟! منـ يـدـنـيـ إنـ أـنـتـ طـرـدـتـيـ ؟ منـ يـدـنـيـ إنـ أـنـتـ غـضـبـتـ علىـ ؟ فـرـحـتـهـ أـمـهـ وـنـظـرـتـ إـلـيـهـ مـنـ خـلـ الـبـابـ تـجـرـيـ دـمـوعـهـ عـلـيـ خـدـيـهـ مـتـمـعـكـاـ فـيـ التـرـابـ فـفـتـحـتـ لـهـ الـبـابـ ، وـضـمـنـتـهـ إـلـيـ حـجـرـهـاـ ، وـجـعـلـتـ تـقـبـلـهـ وـتـقـولـ : يـاـ قـرـةـ عـيـنـيـ ، يـاـ عـزـيزـ نـفـسيـ ، أـنـتـ الـذـيـ حـمـلـتـيـ عـلـيـ نـفـسـكـ ، أـنـتـ الـذـيـ تـعـرـضـتـ لـمـاـ حـلـ بـكـ ، لوـ كـنـتـ أـطـعـتـيـ لـمـ تـلـقـ مـنـيـ مـكـروـهـاـ ، فـتـوـاجـدـ الصـبـيـ ثـمـ قـامـ ، وـدـخـلـ إـلـيـ بـيـتـهـ ، فـصـاحـ ذـوـ النـونـ وـقـدـ رـأـيـ هـذـاـ المـنـظـرـ ؟ وـجـدـتـ قـلـبـيـ وـجـدـتـ

قلبي وَجَدْتُ قلبي ، أَيْ وَجَدْتُ أَنَّ الْقَلْبَ لَا يُطْمِئِنُ إِلَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يُطْمِئِنُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ تُتَبِّعَ إِلَيْهِ ، لَا يُطْمِئِنُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ تَتُوبَ لَهُ ، لَا يُطْمِئِنُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ تُقْبَلَ عَلَيْهِ ، لَا يُطْمِئِنُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ تَتَكَلَّ عَلَيْهِ ، لَا يُطْمِئِنُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ تَزُورَهُ فِي بَيْوَتِهِ ، وَإِنَّ بَيْوَتِي فِي الْأَرْضِ الْمَسَاجِدِ ، وَإِنَّ زُوَارَهَا هُمْ عُمَارُهَا ، فَطَوْبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي وَحْقًا عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكَرِّمَ الزائِرَ .

أَيُّهَا الْأَخْوَةِ الْمُؤْمِنُونَ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿أَلَا بَذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾

[سورة الرعد : ٢٨]

أَيْ لَوْ أَنَّكَ مُذْنِبٌ ، لَوْ أَنَّكَ مُخْطَى ، لَوْ أَنَّ الْقَدَمَ زَلَّتْ بِكَ ، مَنْ لَكَ غَيْرَ اللَّهِ؟ مَنْ لَكَ مَلْجَأً غَيْرَ اللَّهِ؟ هَلْ لَكَ مُعِينٌ إِلَّا اللَّهُ؟ هَلْ لَكَ مَلْجَأً غَيْرَ اللَّهِ؟ هَلْ لَكَ مَرْجِعٌ إِلَّا اللَّهُ؟ هَلْ لَكَ غَافِرٌ إِلَّا اللَّهُ؟ هَلْ لَكَ قَابِضٌ غَيْرَ اللَّهِ؟ هَذِهِ الْقَصَّةُ عَلَى بَسَاطَتِهَا ، وَعَلَى أَنَّهَا مَأْلُوفَةٌ لِكُنَّهَا أَعْطَتْ هَذَا الْعَارِفُ بِاللَّهِ دَرْسًا لَا يُنْسِى ، قَالَ : يَا أَمَاهَ مَنْ يَفْتَحُ عَلَيَّ الْبَابَ إِنْ أَنْتَ أَغْلَقْتَ عَلَيَّ الْبَابَ؟! مَنْ يُذَنِّنِي إِنْ أَنْتَ طَرَدْتِنِي؟ مَنْ يُذَنِّنِي إِنْ أَنْتَ غَضَبْتَ عَلَيَّ؟ فَرَحِمْتَهُ أَمْهُ ، وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ مِنْ خَلَلِ الْبَابِ تَجْرِي دُمُوعُهُ عَلَى حَدِيبَهُ مُتَمَعِّكًا فِي التُّرَابِ فَفَتَحْتَ لَهُ الْبَابَ ، وَضَمَّتْهُ إِلَى حَجْرِهَا ، وَجَعَلْتَ تُقْبِلُهُ وَتَقُولُ : يَا قُرَّةَ عَيْنِي ، يَا عَزِيزَ نَفْسِي ، أَنْتَ الَّذِي حَمَلْتِنِي عَلَى نَفْسِكَ ، أَنْتَ الَّذِي تَعَرَّضْتَ لِمَا حَلَّ بِكَ ، لَوْ كُنْتَ أَطْعَنْتِنِي لَمْ تَلْقَ مِنِّي مَكْرُوهًا ، عَنْدَنِ صَاحِذُ النُّونِ الْمَصْرِيِّ ، كَمَا صَاحَ أَرْخَمِيدِسُ ، قَالَ : وَجَدْتُهَا وَجَدْتُهَا ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الصِّيَحَةُ غَيْرِ تِلْكَ الصِّيَحَةِ ، صَاحِذُ النُّونِ الْمَصْرِيِّ : لَقَدْ وَجَدْتُ قلبي ، أَيْ وَجَدْتُ مَأْوَى قلبي ، وَجَدْتُ راحَةَ قلبي ، وَجَدْتُ سَعَادَةَ قلبي ، السَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ ، وَالرَّاحَةُ كُلُّ الرَّاحَةِ ، وَالْمُطْمَئْنَيْنَ كُلُّ الْمُطْمَئْنَيْنَ ، وَالرَّضَا كُلُّ الرَّضَا ، أَنْ تَكُونَ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ :

كُنْ مَعَ اللَّهِ تَرَاللهُ مَعَكَ وَاتْرُكِ الْكُلُّ وَحَذِرْ طَمَعَكَ

وَإِذَا أَعْطَاكَ مَنْ يُمْنَعُهُ ثُمَّ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا مَنَعَكَ

هَذَا يُؤكِّدُهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصْرُوْا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[سورة آل عمران: ١٣٥]

هَذَا الَّذِي يُصَدِّقُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى :

﴿وَعَلَى الْثَالِثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنَّوْا أَنَّ لَا مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾

[سورة التوبة : ١١٨]

أيها الأخوة الأكارم ؛ من طبيعة الحياة أن العبد إذا خافَ من عبد هربَ إلى غيره، ولكنه إذا خاف من ربِّه إلى من يهرب ؟ إلى من يلت杰ء ؟ والله محيط بكل شيء ، لذلك وردَ في الدعاء الشريفي : "أعوذُ بِرِضاكَ مِنْ سَخْطِكَ ، وَبِغَفْوَكَ مِنْ عَقْوبَتِكَ ، وَبِكَ مِنْكَ" ووردَ في حديث آخر : "لا ملجاً لي منك إلا إليك" فرَّ من الله إلى الله ، الجأ من الله إلى الله ، أي الجأ من عقوبته إلى عفوه ، استَعْذَ بِرِضاهِ مِنْ سَخْطِهِ ، وَبِغَفْوَهِ مِنْ عَقْوبَتِهِ ، أطْعُمُهُ حَتَّى تَجُوَّهَ مِنْ عَقْوبَتِهِ ، عَذْ إِلَيْهِ حَتَّى تَجُوَّهَ مِنْ عِقَابِهِ ، لِزَمْ بَابَهُ حَتَّى تَجُوَّهَ مِنْ الْوَحْشَةِ .

أيها الأخوة الأكارم ؛ قال أحد العارفين بالله ، وهو الفضيل بن عياض : ما من ليلة إلا وينادي الجليل ؟ من أعظم مني جوداً ؟ والخلق لي عاصون ، وأنا لهم مُرافقٌ ، أكلؤهم في مصالحهم، كائِنُهم لم يعصوني ، وأنولى حفظهم كائِنُهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي وعلى المسيء ، منْ ذَا الَّذِي دعاني فلَمْ أَسْتَجِبْ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَنِي فَلَمْ أُعْطِهِ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَنْأَخَ بِبَابِي فَنَحَّيْتُهُ ؟ أَنَا الْفَضْلُ وَمِنِّي الْفَضْلُ ، أَنَا الْجَوَادُ وَمِنِّي الْجَوَادُ ، أَنَا الْكَرِيمُ وَمِنِّي الْكَرِيمُ ، من كرمي أن أعطي العبد ما سأله وما لم يسألني ، من كرمي أن أعطي التائب كل سُؤْلَهُ .

أيها الأخوة الأكارم ؛ ذلكم الله رب العالمين ، ما لكم من دونه من ولية ، ما لكم من دونه من نصير ، ما لكم من دونه من شفيع ، ما لكم من دونه من ناصر ، ما لكم من دونه من حافظ ، ما لكم من دونه من مؤيد .

انعدام الشر المطلق في ملك الله عز وجل :

أيها الأخوة الأكارم ؛ قال عليه الصلاة والسلام في فقرة من حديثٍ طويل :
((والشر ليسَ إِلَيْكَ))

[مسلم وأبو داود والترمذني والنسائي عن علي بن أبي طالب]

وقد فسرَ العلماء هذه الفقرة بأنَّ الشرَ المطلق ، أو الشرَ المحسُن المقصودُ لذاته لا وجود له في ملكِ الله عز وجل ، لكنْ هناك ما هو في عُرف الناس ما هو شر ، في مقاييسهم ، فالفارق في مقاييس الناس شر ، والمرضُ شر ، ولكن إذا نقلَكَ المرضُ من حال إلى حال ، ومن منزلة إلى منزلة ، ومن وَضْعٍ إلى وَضْعٍ ، إذا نقلَكَ الخوف من تقوُّتِه إلى استقامة ، إذا نقلَكَ الحُرْنُ من ضياعٍ إلى وِجدان ، فهل هذا شرٌ مطلق ؟ لا والله ، هو خَيْرٌ مَحْسُنٌ ، ولكن في صورة شر ، كالدواء تماماً ؛ مُرّ المذاق لكنَّ عاقبتَهُ مُرِيحة ، مُرّ المذاق ، ولكن عاقبتَهُ مرضية ، مُرّ المذاق ، لكنَّ عاقبتَهُ مستحبَّة عند الإنسان ، يجبُ أن تعلموا علم اليقين أنَّ الشرَ المطلق ، ومعنى الشرَ المطلق أيُّ الشرَ المقصود لذاته ، لا وجود له في ملك الله عز وجل ، إنما الشرُ سُمِّيَ شرًا بالنسبة للناس ، بحسب مقاييسهم ، بحسب قيمتهم ، وبحسب ما ألغوه ، فلذلك قال تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعَزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرِ ﴾

[سورة آل عمران: ٢٦]

لم يقل بيديك الخير والشر ، بيديك الخير ، لأن العطاء خير ، والأخذ خير ، الإعزاز خير ، والإذلال خير ، ولكن في حساب العواقب ، لا في حساب الأحوال الراهنة ، في حساب المال ، لا في حساب الحال ، في حساب النتيجة ، لا في حساب المقدمة ، في حساب الآخرة ، لا في حساب الدنيا .

الصلاح والتقوى أساسه قلب بار و الفجور والانحراف أساسه قلب فاجر :

أيها الأخوة الأكارم ؛ ويقول الله عز وجل متابعةً للحديث القدسى :

((يا عبادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قُلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عبادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قُلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[مسلم عن أبي ذر]

يُستفاد من هذه الفقرة أن القلب إذا كان باراً برّ الجوارح ، وأن القلب إذا كان فاجراً فجرت الجوارح ، وأن أصل الشر هو انحراف القلب ، ويقول الله عز وجل في بعض الأحاديث القدسية : " عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلأ طهرت منظري ساعة ؟ " ويقول عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْنَعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[البخاري عن النعمان بن بشير]

((يَا عبادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قُلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ))

[مسلم عن أبي ذر]

إذا الصلاح والتقوى والخير والمعروف والإحسان أساسه قلب بار ، والفساد والانحراف والإساءة والطغيان أساسه قلب فاجر .

أيها الأخوة الأكارم ؛ يقول عليه الصلاة والسلام :

((التقوى ها هنا التقوى ها هنا مرتين أو ثلاثة وأشار بيده إلى صدره))

[مسلم عن أبي هريرة]

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لَكُلُّ امْرَأٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأٍ يُنَكِّحُهَا فَهَجَرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[البخاري عن عمر]

تقنين الله ليس تقنين عجز بل تقنين تأديب :

شيء آخر أيتها الأخوة متعلق بهذا الحديث الشريف ، هو أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :
((يا عبادي لو أن أوكُم وآخركم وإنكم جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر))

[مسلم عن أبي ذر]

ماذا أراد الله بهذا الكلام ؟ أراد الله بهذا الكلام أن يدفعنا إلى سؤاله ، لأنَّ الكريم ، وكامل في غناه ، كامل في قدرته ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام
((يمين الله ملائكة لا يغتصبها نفقة سحاء بالليل والنهر أرأيتم ما أنفق منْ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغضن ما في يمينه))

[ابن خزيمة عن أبي هريرة]

أيها الأخوة ، الآن أقول لكم كلمة دقيقة ، إذا رأيتم تقنينا من قبل الله للأمطار ، أو بالمواد ، أو بال حاجات ، يجب أن توقنوا يقيناً قطعياً أنَّ تقنين الله ليس تقنين عجز ، بل تقنين تأديب ، قال تعالى :

«ولو بسط الله الرزق لعباده ليغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خير بصير»

[سورة الشورى : ٢٧]

حينما تشيخ أمطار السماء ، فلكي ننظر إلى السماء ، فلكي نتطلع إلى رب السماء ، إذا نصبت المواد بين أيدينا ، فلكي نصبو من غفلتنا ، فلكي نعود إلى رشدنا ، قال تعالى :
«ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون»

[سورة السجدة : ٢١]

ما دام الأمر كذلك ، فقد وردَ عن النبي صلى الله عليه وسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((لا يقل أحدكم أغفر لي إن شئت ، وليعزم في المسألة فإنه لا مكره له))

[النسائي عن أنس]

أنت إذا دخلت على إنسان وسألته أن يوظفك تقول له : إذا أمكنك ، إذا كان هناك شواغر ، إذا استطعت ، إذا كان هذا الأمر بيده فأنا أرجوك ، لكنك تعلم أنَّ هناك أموراً ليست بيده ، أو هناك شواغر ليس ملؤها بيده ، فأنت إذا سألت إنساناً تعرف أنَّ قدرته محدودة ، تعذر ، لكنك إذا سألت الله أيعقل أن تقول له : إذا شئت ، بحسب الشواغر يا رب ! وبحسب إمكانياتك !!! هذا كلام فيه كفر ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم :

((لا يقل أحدكم أغفر لي إن شئت ، وليعزم في المسألة فإنه لا مكره له))

[النسائي عن أنس]

أطلب من الله تعالى بيته ، وإن كان شراء البيت في نظرك حلماً لا يتحقق ، وكم من إنسان يسرّ الله له شراء بيته بعد يئس مرير ، أطلب من الله زوجة صالحة تعينك على أمر دينك ، وإن رأيت

النساء في أغلبهن كاسيات عاريات ، أطلب من الله عملاً يُدرّ عليك رزقاً حلالاً طيباً مباركاً وإن كانت الأرزاق في معظمها مشبوهة ، أطلب من الله ، واعزِّم المسألة ، ولا تقل إن شئت ، أو إن أردت .

أيها الأخوة الأكارم ؛ وردَ في بعض الآثار : " أيؤمل في الشدائِد غيري وأنا الحي؟ ويرجى غيري وبيدي مفاتيح الأبواب ؟ " ، يقول لك الإنسان : هذا المال أدخلْه لوقت الشدة ، الشدة بيده من ؟ " أيؤمل عبدي غيري في الشدائِد والشدائِد بيدي وأنا الحي الكريم ! ويرجو غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وبابي مفتوح لمن دعاني ! من ذا الذي أملني لعظيم نوائبِه فقطعت به دونها ! أم من ذا الذي رجاني لعظيم جرمِه فقطعت رجاؤه مني ، جعلت آمال عبادي متصلة بي ، وملأت سماواتي من لا يمل تسببي ، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ! ويا شقوة لمن عصاني ولم يرافقني .

لا تخضعن لمخلوق على طمع فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإتاما الرزق بين الكاف والنون

* * *

كل شيء مسجل على الإنسان بالمكان والزمان والأدلة :

أيها الأخوة المؤمنون ، آخر فقرة في الحديث :
 ((يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجَدَ خيراً فليحمدَ الله ومن وجَدَ غيرَ ذلك فلَا يَلُومَنَ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

اعمل ما شئت فالكل مسجل ، كل شيء تعلمُه مسجلٌ عليك في الزمان والمكان والأدلة ، قال تعالى :

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

[سورة فصلت : ٢١]

قال تعالى :

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيَلْتَنَا مَالْ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

[سورة الكهف : ٤٩]

قال تعالى :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[سورة الزمر : ٨-٧]

أيها الأخوة المؤمنون ، آخر فقرة في الحديث :

((يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجَدَ خيراً فليحمدَ الله ومن وجدَ غيرَ ذلك فلَا يلُومَنَ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

بعضهم قال : يُوفِّينا إِيَّاهَا في الدنيا ، وفي الآخرة ، وقد يُوفِّينا بعضها في الدنيا، ويُوفِّينا إِيَّاهَا كاملة في الآخرة ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال في بعض ما قال : المؤمن يُحاسب على سُيُّاته في الدنيا ، وتُتَخَّرُ أعماله الصالحة للآخرة ، وأما الكافر فيُعطى أجر حسناته في الدنيا ، وتُتَخَّرُ سُيُّاته في الآخرة ، على كُلِّ إِنَّ اللَّهَ لِيَحْمِي صَفَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَهْدُوكُم مِّنَ الطَّعَام .

المصيبة كفارة لذنب ارتكبه العبد :

وقد رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربِّه))

[ورد في الأثر]

ومن زلت قدمه في أمر ثم عافاه الله منه ، كان كفارة لما مضى من ذنبه وموعظة له فيما يستقبل من عمره ، أي زلت قدمه في هذا الموضوع فدفع الشَّمَن باهظاً ، أو لا ؟ هذا الثمن ، هذا العقاب ، هذه المشكلة ، هذا المرض ، هذا الضيق ، هذا الهم ، هذه الإهانة ، هذه الحيرة ، هذا العقاب الذي عاقب الله به المؤمن على ذنب ارتكبه ، له وظيفتان ؛ الوظيفة الأولى أنه كفر له ذلك الذنب ، والوظيفة الثانية أنه مواعظة له فيما يستقبل من عمره ، أي إِيَّاكَ أَن تعود لِمِثْلِهَا يا عبدي ، فالعقاب جاهز ، إِيَّاكَ أَن تعود لِمِثْلِهَا فالغرامة مُحْقَقة ، من لم يتعظ بما وقع له فهو مُعطل العقل ، فإذا أصاب العبد مصيبةً كانت كفارة لذنب ارتكبه ، ومواعظةٌ مما يستقبل من عمره . قال : وإن المنافق إذا مرض ، وعوفي كان كالبعير عقله أهلة ثم أطلقوه ، لا يدرى لا لم عُقِل ؟ ولا لم أُطلق ؟ تأتيه مصيبة يفهمها فهُمَا ساذجاً ، يفهمها فهُمَا أرضيَا ، يفهمها فهُمَا شركيَا ، يقول لك : ليس لي حظ بالدنيا ، يعزو هذا إلى حظه ، أو إلى أنَّ الدَّهْرَ يوْمٌ لك ، ويوم عليك ، أو أنَّ الدَّهْرَ قلبَ له ظهرَ الْجَنَّ ، أو أنَّ الناسَ هكذا ليس فيهم خير فإذا أصابته مصيبة فرَغَها تفريغاً غير صحيح ، أعيد عليكم نص الحديث :

((إن العبد المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافه الله كان كفارة لما مضى من ذنبه، ومواعظة له فيما يستقبل من عمره ، وإن المنافق إذا مرض ، وعوفي كان كالبعير عقله أهلة ثم أطلقوه ، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أطلقوه ، فقال رجل : يا رسول الله ما الأقسام ؟ قال : أو ما سقطت قط ؟ ! قال : لا . قال : فقم عنا فلست منا))

[الدر المتنور عن عامر أخي الخضر]

أيها الأخوة الأكارم ؛ حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتنمى على الله الأماني ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولِي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُه وَرَسُولُه ، صاحبُ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسِّلْمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

العظم و تركيبها :

أيها الأخوة الأكارم ؛ ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوُهَا لَحْماً﴾

[سورة البقرة : ٢٥٩]

العلماء قالوا : العظام في مجملها مركبة من مادة أساسية هي الكالسيوم ، ولكن توزيع هذه المادة مع متمماتها على شكل آخر ، فخمسة وثمانون بالمئة من العظام كالسيوم وفوسفات ، وعشرون بالمئة كالسيوم الكربونات وثلاثة بالألف كالسيوم الكلوريد ، وواحد بالمئة فوسفات المغنزيوم ، هذه نسبة الكالسيوم مع المتممات في العظام ، وتسعة وتسعون بالمئة من كالسيوم الجسم متواضع في العظام ، ولكن امتصاص الكالسيوم من الأمعاء لا يتم إلا بهرمون تفرزه غدة صغيرة جداً إلى جانب الغدة الدرقية ، فلو تعطلت هذه الغدة الصغيرة جداً التي اسمها جوار الغدة الدرقية لما أمكن امتصاص الكالسيوم من أمعاء المخلوق .

شيء آخر : توضع الكالسيوم في العظام يحتاج إلى فيتامين (د) ، فإذا لم يتوافر هذه الفيتامين أصيب الطفل بـ هشاشة في عظامه ، أو بلين في عظامه ، موطنه الشاهد في الموضوع أن شكل العظام على شكل شوكولات ، وهذه الشوكولات تتدخل ، وإذا تدخلت شكلت جسمًا متنبلاً لدرجة متناهية ، والحقيقة العظام ، عظم عنق الفخذ يتحمل ضغط مئتين وخمسين كيلو تقربياً ، وفي العظام خصائص المتنانة والقوية بشكل لا يصدق ، فربنا سبحانه وتعالى :

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوُهَا لَحْماً﴾

[سورة البقرة : ٢٥٩]

ننشرها أي نجعلها على شكل شوكولات متداخلة بحيث تبدو متنبة جداً ، وفايسية جداً . أيها الأخوة المؤمنون ، لازلنا نصر على أن جسم كل منا فيه من الآيات الدالة على عظمة الله الشيء الكثير ، قال تعالى :

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[سورة الذاريات : ٢١]

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافت ، وتولنا فيمن توليت ، وببارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحبيتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن رواعتنا ، وآمنا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخيماً وسائر بلاد المسلمين ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القاطنين ، ولا تهلكنا بالسنين ، ولا تعاملنا بفعل المسيئين يا رب العالمين ، اللهم بفضلك ورحمتك أعلِّ كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيده ولاتهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قادر ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين